المقدمة

مثلما ارتبطت حياة أستاذنا ومعلمنا الراحل المقيم محمد عمر توفيق ارتباطاً ـ وثيقاً بالمدينتين المقدستين، مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد ارتبط، بالكثير من أبنائهما، وكنت أحد ذلك الكثير.. خاصة حينما انجلى من حوله «الغبار» على حدّ تعبيره ـ يقصد به تلك الفئات شديدة اللزوجة .. التي تحيط ـ عادة ـ بالمسؤول في دول العالم الثالث.. وتطارده وتخنقه.. وتغتال وقته وحريته.. وربطتني به من الوشائج والعلاقات التي تتداخل في حميمية صادقة، أبوة وإخاء.. صداقة وزمالة رغم فارق السن والرؤى والتجربة والاختلاف الذي أشعر ـ اليوم .. أن كثيراً منه لم يكن له ما يبرره ـ لذلك لا أظنني كنت سأفاجأ إن تضمنت أوراقه الخاصة استجلاء لبعض ذاك ـ ولكن المفاجأة.. أن يخصني بتقديم هذه الأضواء إلى القارىء الكريم.

إن ما خصتني به الوصية من عزيز دائم الحضور في نفسي ووجداني، يحمل الكثير من التكريم، والكثير من الوفاء من الأستاذ الراحل حينما أوصى، والكثير من التوقير من أسرته الكريمة حينما حرصت على تنفيذ وصيته.. ولا أنسى ما أتاحه لي أخى الأستاذ فاروق محمد عمر توفيق ـ يوماً ـ بإهدائه البكائية الفلسفية النبيلة لأديبنا الراحل، الوزير المثقف والمثقف الوزير «رجال ذهبوا» من فرصة للذهاب بعيداً ـ لسنوات خلت ـ لأسترجع ذلك التقدير وتلك الحفاوة لفكره حين كان مؤلَّفه القيم «من

ذكريات مسافر» ثاني إصدار لـ«تهامه» لنتاج مفكرينا.

لقد كتب وقيل الكثير عن شخصية «الأستاذ» ولكنني وجدته ـ رحمه الله ـ فوق كل ما كتب، مروءة وكرماً وفضلاً، وسعة صدر، ورجولة وإباء، وعطاء ووفاء وتعففاً عن كل ما لا يحل ولا يحمّل، وترفعاً عن سفاسف الأمور والمماحكة، أحبّ الحياة والناس، يجمعهم على «الزّفر» فيخرجون من عنده أكثر ثناء على حد تعبير محبّه الدكتور/ محمد عبده يماني ـ متعه الله بالعافية ـ سافر كثيراً هرباً من الناس إلى الناس.

عُرف ـ رحمه الله ـ بالنزاهة الشامخة وعفّة اليد واللسان والصرامة مع نفسه قبل الآخرين وخاطب الناس على قدر عقولهم، وتخفّى وراء مظهره البسيط المتواضع حتى لا يفتن أو يُفتن بنجاحه الإداري المشهود.

«الأستاذ» لقب لو قيل مجرداً لكان المقصود به محمد عمر توفيق، ليطغى على كل الألقاب الرسمية التى شُرِّفت به.. فالأستاذ لقب خلعه عليه العارفون بقدره ليجري على ألسنة الجميع لم ينازعه فيه لقب «معالي» المهيب بعد ان استوزر يتردد صداه في ردهات الوزارة وخارجها، وكان هذا ـ يومذاك ـ مدعاة لانزعاج ودهشة عتاة البيروقراطيين وعبدة سحر الألقاب، وأستطيع أن أزعم أنه كان يطرب لسماعه ويجد هوى في نفسه الأدبية المتأدبة.. و«ذو الوزارتين» لقب آخر.. حيث اجتمعت له مسؤولية وزارتي المواصلات والحج والأوقاف.

كان ـ رحمه الله ـ أقرب للمثقف منه للأديب ـ رغم ريادته وأستاذيته في الأدب وقدراته في النقد والتقويم والتصحيح والرصد، وتمثل ذلك القرب في أسلوبه المتميز في ممارسة العمل العام من منطلق أن «أمّ مشاكلنا» العربية الموروثة تتجذر في تبعية الفكر للسياسة، حاول التحرر من ذلك العبء..

واضعاً سلامة الفكرة قبل نوازع السياسة.

تشرّبت نفسه بحبّ الحرية والمثل العليا، والتسامح، وسعة الأفق، وترجيح أحكام العقل والتوافق بين الفكر والممارسة وبين ما يقول المرء وما يفعل، وبين عدم التصالح مع الواقع السلبي ومحاولات إدانته وكشف سوءته، في واقعية تنأى به عن شطط فجاءة التغيير، وسلحفائية النفس الطويل، يؤمن بدور المثقف، وحضوره الدائم الفاعل المتفاعل مع قضايا مجتمعه، ليجسّد النموذج الذي لا يقعده تعدد المحاولات ولا تهمّشه ضآلة النتائج، بل كان هو شخصياً ـ رحمه الله ـ أنموذجاً لعلاقة المثقف مع السلطة، وتضييق الفجوة بينهما ـ في محاولة لترجمة الأحلام إلى واقع معاش.

صاحب قلم جريء.. ورأي حصيف، مارس بأستاذيته الصحافة والإدارة، وكان رأيه في الأولى، أن الصحافة الفاضلة هي التي تهدم وتبني بالحق، ولوجه الحق وفى سبيل الحق ورأيه فى الثانية لا يختلف عن الأولى حيث يرى أن الوظيفة الفاضلة ـ اياً كان مستواها ونوعها ـ هي التي تهدم نفس الهدم، وتبني نفس البناء، بالحق وكل الحق ولا شيء غير الحق، كلتاهما في خط واحد، هو خط التزام جانب الحق.

حينما غيّبه الموت ـ جسداً ـ عنا كان الإحساس العام في الأوساط الثقافية إحساساً عميقاً باليتم، فبغيابه خسرت الكلمة واحداً من أنبل فرسانها، وخسر الأدب واحداً من أبرز رواده، وخسرت الإدارة واحداً من أخلص رجالاتها، وخسر الوطن واحداً من أغلى أبنائه.

اليوم أجد نفسي حيال دعوة كريمة، وتشريف أقف أمامه في رهبة واستوقف معي القارىء الكريم يتقدمني معاليه بقامته السامقة.. لأقدم ـ عبر هذه الصفحات ـ بعضاً من عباراته المضيئة وأفكاره المزدانة بالجمال،

في ثنايا مقالات متفرقات سكب فيها ذاته على الورق، بعد استغراق وتأمل وبحث ومكابدة، وتصوير وتسجيل للتجربة والخاطرة بكل أبعادها، استمتع بها حين أكتبها.. متعة البوح ومتعة الشعور بها، ليستمتع بها القارىء بالاستقراء لشوارد المعاني والعبارات المشرقة بنجوى الروح، المترعة بوميض الفكرة، المتوهجة بضوء الحقيقة.

تباريح ذات، ونتاج انفعال بالحياة، وتفاعل معها لكاتب كان يرى ان أدبنا لايزال ـ بصورة عامة ـ سطحياً، رغم أن ليس فينا من يجهل مقاييس الأعمال الأدبية، ولكن أنّى لنا ـ ونحن مصفّدون أن نظهرها في إنتاجنا وننفعل بالحياة.. ومازال مجتمعنا بدائي العواطف، آحادي النظرة في تفكيره وعواطفه وسلوكه ـ وإن كان قد قطع شوطاً في محاولاته اللحاق بركب المدنية والحضارة.

تجسيد حيّ لعشق الكلمة الواعية المسؤولة، وجلاء الفكرة، اعترف بأنها أعادتني إلى أيام خوال تموج بإشراقات عموده اليومي «ذكرى» فاكهة صحافتنا بصحيفة «البلاد» ـ يومذاك ـ مترعة بعبق فن الكتابة وارستقراطية التعبير.

لست أديباً ولا ناقداً لأقوّم وأستجلي، إنما أعتبر نفسي واحداً من الكثيرين الذين قرأوا، وتذوقوا، وانفعلوا وتفاعلوا بما كتب «الأستاذ» الذي لم يستمد موضوعاته من واقع الحياة الاجتماعية فحسب ـ بل سعى إلى تسليط الضوء على هذا الواقع وإضاءة جوانبه، وطرقه ومسالكه المتشعبة، نبذاً للسلبيات وترسيخاً للإيجابيات وتشجيعاً للطاقات المبدعة في محاولاتها الجريئة.. وإتاحة المساحات للعقول الخلاقة كي تسهم في التنوير الفكري وتساعد في بلورة التطلعات والآمال، لمواصلة الجهود في طريق التنمية في

كافة أرجاء الوطن.. الوطن الذي كان هو أحد من أرسوا دعائم نهضته ـ بلا ضجة ولا أضواء ـ شواهد مجسدة في الموانىء والطرق والمواصلات وشعاب المشاعر المقدسة.

عشق السفر والترحال يشدّ له الرحال كفاية وعافية ويتقصّده سياحةً وفكراً وتأملاً، وجاء تكليفه بتولي الوزارة، وهو خارج الوطن ـ الذي كان يصطحبه معه ـ تأخر في العودة بأعذار لم يكن من ضمنها منحه فسحة من الوقت للمشورة وأخذ الرأي.. وتحزب أصدقاؤه إزاء استوزاره.. حزب يرى قبول تولّيها انتهاء لدوره الثقافي وتحوّله إلى موظف .. وحزب يرى أن ملكاته ومواهبه الإدارية وقدراته الهائلة في البناء يجب أن تستثمر في خدمة الوطن.. وانتصر رأي الحزب الثاني ليقدم أنموذجاً مضيئاً في ترجمة الأحلام إلى واقع.

مقالات تهدف إلى التنمية ـ إنساناً ومكاناً ـ الإنسان الذي تتجاذبه النزاعات، وتتلاقى عنده المتناقضات، فيعانيها في ضميره ويعمل فيها بتفكيره.. ليخرج من مرحلة المعاناة وإعمال التفكير الى مرحلة الاختيار والتقرير، ومنها إلى مرحلة التنفيذ والفعل، والتي في ضوئها يكون الحكم على الإنسان وفعله.. فالإنسان هو مجموعة أفعاله ـ كما يقول الوجوديون!.

وأخيراً.. عزيزي القارىء .. لأدعك تستمتع، وتنسجم مع هذه الخواطر المضيئة كانسجام ساكني كوبنهاجن ـ يوم صوره لنا قلم أديبنا الراحل المقيم في إحدى سفرياته بقوله: «هناك في كوبنهاجن يكون الناس في انسجام مع الشارع، فإذا أنت طالعت عليهم أنكروا عليك ذلك!.. فأنت المعني بكل ماكتب، والمدعو للدخول إلى هذا العالم الإبداعي، وما أنا إلا من نال شرف القيام بواجب الاستقبال، والترحيب بك عند أبواب مضيف يستقبل كلينا بما

قال الخليفة الراشد الصديق: «الله أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون، وأغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون» فالمعذرة والعتبى للقارىء الكريم عن أي تقصير، ودعواتي بالمغفرة وحسن الجزاء لفقيد الكلمة.

محمد سعيد طيب